

البعد الإسلامي في كتابات أبي قاسم سعد الله

د. / عبد القادر خليف

1- مقدمة حول مساره :

أبو القاسم سعد الله هو أحد أعمدة الثقافة الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، وبخاصة في التاريخ والأدب، وهو إلى جانب ذلك كاتب من النوع الرفيع وشاعر مجيد، يحمل موسوعة ثقافية ويتميز بتواضع العلماء. وبذلك جمع بين العديد من صفات المثقف العالم. هذا ما جعلنا نبحت في جانب من جوانب كتاباته العديدة وهو الجانب الديني الإسلامي. وقبل التعرض لهذا الموضوع لا بد من التعريف بهذه الشخصية البارزة في تاريخ الجزائر المعاصر، إنه "عميد المؤرخين الجزائريين" مثلما ينعته بعض الكتاب الجزائريين.

ولد أبو القاسم سعد الله ببلدة قمار ولاية الوادي جنوب شرقي الجزائر في 21 جويلية من سنة 1929، حفظ القرآن الكريم في كتاب بلدته وقرأ بالاشتغال في الزراعة. وفي سنة 1947 انتقل إلى جامع الزيتونة وحصل هناك على شهادة الأهلية، وابتداء من الخمسينيات بدأ يكتب في صحيفة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين آنذاك. ثم بدأ يُعلم أبناء الجزائر سنة 1954 بمدرسة الثبات بالحراش شرقي العاصمة، وانتقل للتعليم في السنة الموالية إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة التابعة حاليا لولاية سطيف.

وفي أكتوبر من سنة 1955 سافر إلى القاهرة بمساعدة جمعية العلماء، وهناك التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وفي سنة 1962 حصل على شهادة الماجستير.

* أستاذ التعليم العالي ، قسم التاريخ ، جامعة وهران

انتقل إلى جامعة منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية وحصل منها على شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر سنة 1965. عاد إلى الجزائر سنة 1967 وفتح بنفسه قسم الدراسات التاريخية بجامعة الجزائر. غادر الجزائر ثانية سنة 1994 نحو الولايات المتحدة الأمريكية، ومن هناك أتته نحو كندا، ثم استقر به المقام في منتصف التسعينيات في الأردن لينضم إلى أسرة التعليم في جامعة آل البيت بعمان حتى نهاية سنة 2002. وهو الآن (2008-2009) باحث بالمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 في إطار كتاباته التاريخية، حيث أكمل الجزء العاشر من كتابه تاريخ الجزائر الثقافي ولا يزال في نشاط دءوب.

كان من الناشطين في الكتابة في بعض الجرائد العربية كجريدة النهضة والأسبوع التونسيين والآداب اللبنانية والبصائر الجزائرية. حاز على جوائز وطنية ودولية عديدة، وقد بلغت مؤلفاته زهاء الأربعين كتابا.¹

درس في العديد من الجامعات الجزائرية والعربية والأجنبية، منها جامعة الجزائر وهران وقسنطينة وبعض الجامعات العربية (الأردن - العربية السعودية - سوريا - مصر) وبعض الجامعات الأمريكية (ميتشيفان - منيسوتا).

أما البعد الديني لكتابات أبي القاسم الذي نحن بصدد الحديث عنه فلا بد من توضيح القصد الحقيقي منه. إن البعد الإسلامي هنا لا يعني كتاباته عن الأمور الدينية البحتة، أي الحديث عن القضايا الفقهية والتشريعية المستمدة من القرآن والسنة، وإنما يعني التوجه الإسلامي ككل، فالأستاذ يكتب في القضايا الأدبية والتاريخية والفكرية، ومن هذه الكتابات سنحاول استخلاص هذا التوجه سواء كان ذلك في محتوى ومضمون هذه الدراسات أو من خلال المقدمات والاستهلاكات والخاتمات، ولن يكون هذا شاملا لكل دراسات الأستاذ، ولكننا سنحاول التعرض لذلك من خلال المؤلفات التي تمكنا من الإطلاع عليها.

إن البعد الإسلامي متمثل بوضوح في كتابات أبي القاسم سعد الله، إنه يدافع عنه كمقوم أساسي للهوية الجزائرية، وهو يقرنه أحيانا بالعروبة، ويتحدث عنه حيناً آخر كبعد مستقل بذاته، وذلك بحسب المقام. ويتضح ذلك من خلال عدة عناصر سنعالجها فيما يلي:

يتضح هذا التوجه في حديث الأستاذ عن بعض أحوال الناس المعيشية، من ذلك مثلاً أنه نشر مقالاً بمناسبة شهر رمضان تحت عنوان: "عطلة رسمية"، أعاب فيه على الصائمين ذلك الكسل الذي يصيبهم في هذا الشهر، وبعد استعراضه لعدة جوانب خلص إلى القول: بـ "أن شهر رمضان الحقيقي هو الإيمان والاحتساب مع العمل".² وهو هنا يقتبس المعنى من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه". وقول الله سبحانه وتعالى: "وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله والمؤمنون". (التوبة: 105).

ويتعرض للثورة الجزائرية في إحدى قصائده، ويقرها بأحداث الفتوحات الإسلامية، وبذلك يجد للحدثين، رغم اختلاف الزمن، قواسم مشتركة فيقول:

وفي كل حر نفا في يدك

يغني (لعقبة) محمد السنين

ويطرب (طارق) في زحفه

على الكافرين

ويذكر (حسان) في جنده

يوط للجبل عبر السنين

حضارات عز مكن

ويرسي على الشم نور اليقين.³

فالشاعر يستعيد ذكريات أبطال التاريخ الإسلامي، حيث يرى في ملاحهم رجال الساعة الذين يجدر بالشباب الاقتداء بهم، وأن انتصارات الثورة التحريرية هي تكملة لانتصارات هؤلاء الأبطال.

ورغم أن أستاذنا لم يدرس تاريخ الثورة التحريرية في كتاب محدد، حسب علمنا حتى الآن، مثلما درس الحركة الوطنية مثلاً؛ إلا أنه وفي أحد مقالاته لا يستبعد الروح الدينية الإسلامية عن رجالها، بل يجعلها من أسس وأسباب قيامها. ويقول في الكتاب الرابع من أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر ما يلي: "...وإنصافاً

للتاريخ أيضاً نقول إنه لولا أولئك الفتية الذين آمنوا برحم ووطنهم، وكونوا أنفسهم في الخفاء، واجتمعوا وتعاونوا، وقرروا الثورة، لكانت الجزائر بدون جمعية العلماء كريحة في مهب الريح سنة 1954..". ويضيف: "ويبقى أن نعرف مستقبلنا كم من الذين فحروا ثورة 1954، كانوا من خريجي مدارس جمعية العلماء، وكم هؤلاء وألك الشعب وكم منهم كانوا من خريجي مدارس جمعية العلماء، وكم هؤلاء وألك (صدقوا ما عاهدوا الله عليه).⁴ فهو هنا يعطي لجمعية العلماء، التي كانت تدافع عن الهوية الوطنية المتمثلة خاصة في شعارها: "الجزائر وطننا والعربية لغتنا والإسلام ديننا"، دوراً بارزاً في اندلاع ثورة أول نوفمبر 1954، باعتبارها كونت رجالاً في المرحلة الاستعمارية كان على رأسهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في المرحلة السابقة لسنة 1954.

ورغم أن مسطري بيان أول نوفمبر أعلنوا أن أحد أهداف الثورة هو "الاستقلال الوطني: بإقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن المبادئ الإسلامية"، فإن سعد الله لم يقتنع بذلك، وأشار في المقدمة التي افتتح بها الجزء الخامس من كتاب آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي،⁵ إلى أن بيان أول نوفمبر "لا يحيب على بعض النقط بوضوح كالهوية والإسلام والعروبة..." وهو بذلك يريد تفاصيل أوسع في هذا الموضوع، وليس ذلك سوى غيرة من الأستاذ على مقومات الشعب الجزائري الذي أصبح عرضة، بعد استقلاله، لمختلف التيارات الأجنبية من غربية وشرقية متعصبة.

وعن إيديولوجية الثورة التحريرية يقول في مكان آخر ما يلي: "رغم علمانية الثورة، كما ظهرت في تصرفات وتصريحات قادتها فإنها أعطت للشؤون الإسلامية اهتماماً خاصاً، وأهم هذه الشؤون هي التاريخ الإسلامي والقضاء الإسلامي والأوقاف الإسلامية".⁶ ويأتي الأستاذ بأمثلة مدققة وبشيء من التفصيل، لتلك الشؤون الإسلامية التي اهتمت بها الثورة التحريرية.

الجزائريون من بين أولئك الذين شدوا الرحال إلى هذه المراكز لارتشاف العلوم الدينية العليا لانعدامها في بلادهم.

لقد كان الأستاذ يتحرق شوقا في انتظار إنشاء جامعة إسلامية لاحتواء الراغبين في الدراسات الإسلامية العليا، لأنه "من غير الطبيعي، كما يقول، أن تبقى الجزائر التي تعد أكثر من عشرين مليون بدون مؤسسة عليا للدراسات الإسلامية، ذلك أن إنشاء هذه المؤسسة الجامعية أمر ضروري وحتمي، لأن وحدتنا العقائدية مهما طعمناها بأفكار أخرى، شرقية وغربية، ستظل قائمة على وحدة العقيدة الإسلامية."¹¹

وكان الأستاذ قد كتب المقال السابق في جريدة الشعب الصادرة في 15 جويلية 1982، وقد تحقق أمله بعد سنتين بافتتاح جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بمدينة قسنطينة.¹²

وهو عندما يتحدث عن مسألة الوحدة الإسلامية يعتبرها أملا قريبا وليس بعيدا المنال، فـ "كل المسلمين يطمحون إلى تحقيق هذا الحلم لأن فيه قوتهم وعزيتهم، ومنعة الإسلام وحصانته. والدعوة إلى وحدة الأمة الإسلامية فريضة على كل مسلم من الوجهة الشرعية والسياسية..."¹³ إلا أن الأستاذ يرى أن هذه الوحدة لا بد أن تمر بالوحدة الوطنية والمغربية والعربية. أي أنه لا يرى وحدة محلية معزولة عن المحيط القومي والعقدي، بل هي جزء من ذلك الكل الذي يجب تحقيقه عاجلا أم آجلا. وأن قوتنا تكمن في تلك الوحدة الكبيرة التي جمعنا قرونا عديدة في سالف الأزمان.

والأستاذ في كتابه "أفكار جامحة" يرفض الدعوة إلى المحلية بإحياء، ما أسماه، — "النعرات الجاهلية والقبلية"، واعتبر ذلك انفصالا وتقوقعا عن مجال أوسع، وأن التاريخ علمنا أنه كلما توسع مجالنا الإقليمي كلما كنا أقوى، أما عندما انفصلنا فقد ضعفنا وتمزقنا إلى دويلات سهل على أوربا بعد ذلك غزونا، وعندما جاء العثمانيون عدنا إلى التحالف مع المشرق فأصبحنا بفضلهم أقوى، من جديد.¹⁴ وهو يعتبر الدعوة إلى القبلية والجاهلية طريقا إلى الشيطان لا إلى الله،

وفي موضوع آخر يخاطب الأستاذ الأمريكيين الذين داسوا ديار المسلمين في حرب العراق الأولى ويقول: "... وَمَشَيْتُمْ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي مَشَى عَلَيْهَا رَسُولُنَا الْكَرِيم، وَضَاءَ مِنْهَا إِسْلَامُنَا الْخَفِيف، فَكَانَ ذَلِكَ إِهَانَةً لَشَرَفِ كُلِّ الْمُسْلِمِينَ."⁷

وعند حديثه عن الوضع في العراق في تلك الفترة يذكر أن هدف أمريكا من غزو هذا البلد هو "سحق الانتفاضة ونصب الحماية على الأنظمة العربية العميلة وتدجين الثورة الإيرانية وكبح جماح الثورة الإسلامية المتنامية."⁸

أما فرنسا وعلاقتها بالإسلام والمسلمين فيذكر أنها أخذت من الإسلام ولم تعطه، وجندت عددا كبيرا من المسلمين للوقوف معها في حربين عالميتين لا ناقة لهم فيها ولا جمل. وقد خصص لهذا الموضوع مبحثا خاصا في كتابه "هموم حضارية" تحت عنوان: "تاريخ الإسلام في فرنسا"⁹ يبين فيه علاقة هذه الدولة بالإسلام، وقسم ذلك إلى ثلاث مراحل هي:

مرحلة الفتوحات

1- مرحلة العلاقات العثمانية الفرنسية

2- مرحلة التدافع في العصر الحديث.

وعالج هذا الموضوع بكل روح علمية من خلال ثمانية وعشرين صفحة، وهو أطول مبحث في كتابه هذا، يبين فيه سياسة فرنسا تجاه المسلمين داخل فرنسا نفسها وخارجها، وبخاصة في العصر الحديث، وانتهى إلى نتيجة مؤداها أن "مستقبل الإسلام في فرنسا يتوقف على مدى التفاعل بين المسلمين والفرنسيين، ليس في فرنسا فحسب بل في العالم بأسره."¹⁰ وذلك بعد أن أوضح اختلاف تعامل فرنسا مع المسلمين بين داخل بلدها وخارجها.

وهناك موضوع إسلامي آخر شغل بال الأستاذ وهو أمر إنشاء جامعة إسلامية في الجزائر أسوة باخوتنا في تونس والمغرب ومصر، حيث تتواجد جامعات إسلامية راسخة الأقدام مكانا وزمانا، هي الزيتونة والقرويين والأزهر، قد علّت منابرها العرفانية لنشر العلم بين مختلف أبناء البلاد الإسلامية. وكان

أما الوحدة التي يدعو إليها أستاذنا فإنها تبدأ "بوحدة الجزائر الجغرافية القائمة على وحدة العقيدة وحب الإسلام وعلى وحدة اللسان وهي اللغة العربية، وعلى وحدة التاريخ المشترك الذي يبدأ مع الفتح الإسلامي وعلى وحدة المصير..."¹⁵

إن التاريخ الإقليمي للجزائر المسلمة لا يقل "نصاعة عن التاريخ الإسلامي في إمبراطورته الواسعة، وهي تجد أصداء بعيدة في المنافحين المكافحين عن الشخصية العربية المسلمة في الجزائر، فلا غرو أن تظل ماثلة لأعينهم ملازمة لذاكرهم ملاصقة لشباب يراعهم، حتى يجددوا الشعور بهذه الشخصية ويذكوا التحدي بها."¹⁶

2- الإسلام مقرون بالعربية والعروبة

ورد في كثير من كتابات الأستاذ سعد الله أقران العروبة بالإسلام، فالكاتب يعتبر العنصرين مرتبطين ببعضهما البعض، وذلك عندما يشير إلى الجزائر أو إلى قضايا إسلامية مصيرية معينة.

ويعتبر الأستاذ كتاباته تدخل في إطار الثقافة العربية الإسلامية، حين يذكر أن الجائزة التي منحت له باسم "جائزة الإمام ابن باديس" بقسنطينة في أبريل من سنة 1991، كانت من أجل مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية.¹⁷

وقد شكر في الكلمة التي ألقاها بتلك المناسبة الذين رشحوه لها، واعتبر أن هناك في "ساحة الوطن العربي الإسلامي من يستحقون هذه الجائزة عن جدارة."¹⁸

وعندما زار وزير خارجية فرنسا الجزائر في مطلع التسعينيات، اعتبر الأستاذ تلك الزيارة "إهانة لنا ولبلادنا ولأمتنا العربية الإسلامية."¹⁹ واعتبر فرنسا عدوة لأمتنا لأنها شاركت في العدوان على العراق العربي للمسلم في الحرب الأولى، وحطمت قدرته العسكرية والاقتصادية، وأن فرنسا ناهضت القضايا العربية الإسلامية كقضيي فلسطين والعراق.²⁰

وفي اعتذاره للعراق "، الذي ترك وحيدا بدون نصره في ميدان القتال في مواجهة القوات المتحالفة، اعتبر ذلك نكسة ما بعدها نكسة، وخروجا عما يقتضيه واجب العروبة والإسلام.

وتعرض للأزمة الليبية- الغربية، فبين تقاعسنا عن نصره الشعب الليبي الشقيق الذي دعم الثورة الجزائرية، وكان لها نعم المساند المكابد، "ولكن العيب فينا نحن العرب المسلمين، كما يقول، فنحن مازلنا شعوبا جامدة أو مجمدة."²¹

ويتأسف على حالة المسلمين اليوم الذين يهرقهم الحضارة الغربية "فراحوا منحذين إليها انفعالا وليس بالإرادة والفعل، وذلك، كما يقول، هو حالنا كعرب ومسلمين في مغارب الأرض وفي مشارقها."²²

ويعود بنا الأستاذ إلى التاريخ الإسلامي ليربط العرب بالقرآن الكريم، فيذكر أن ابن رشيق وأمثاله "جنسيتهم القرآن ولغة القرآن، بما سافر ابن رشيق حتى صقلية... وهما انطلقا غيره في أرض الله."²³ أما نحن فقد حَجَمْنَا القرآن واعتبرناه كتاب عبادة وقَرَمْنَا العربية بإحياء اللهجات لتنافسها بدل أن تكون رافدا لها.²⁴

ويذكر في كتابه "دراسات في الأدب الجزائري الحديث" أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت ترفع شعاراً أزعج سلطات الاحتلال وأزعج معها المتخاذلين والجامدين من أبناء الوطن، "وهذا الشعار هو العروبة والإسلام، والدفاع عن القومية العربية والدين الإسلامي في سماحته الأولى."²⁵

وهاهو في إحدى قصائده الثورية يُبدي انتماءه وخصوصيته التي هي نفسها خصوصية الجزائريين فيقول:

وإني اليوم ند

تثور فيه الأماي

فقومي عريبة

وشرعتي الإسلام

أردت جمهورية

وفي قصيدة ثورية أخرى يرُد ما يلي عن اقتران العروبة بالإسلام
هاهنا حيث انتفاضات رهية
ساحة كبرى وفي الساح كتيبة
رمزها التوحيد في ظل العروبة
فمضى يا شعب تغدو الكتيبة! 27

ويتحدث عن الآثار المترتبة عن اتفاقية كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل، ويتأسف لذلك مبينا أن انسحاب مصر -آنذاك- من الساحة العربية والوضع الشاذ الذي عاشه الوطن العربي والأمة الإسلامية، "لم يَفُوقْ عندنا روح المسؤولية العربية الإسلامية، وأن الحركة الصهيونية تعمل ليل نهار لتمزيق الوطن العربي الإسلامي". 28

فالبلاذ العربية الإسلامية في نظر الأستاذ هي وحدة مترابطة مصيرية، تتفاعل فيما بينها سلبا وإيجابا، تصيبها النجاحات والنكسات في آن واحد. فإذا أصيبت إحداها بأزمة تداعت لها بقية البلاد متأثرة بما أصاب أختها من هم وألم أو من فرج وانتصار، أو كما يقول الشاعر الجزائري حسن بولحبال:

أما جاء أن المسلمين وذادهم ورحتهم والعطف جسم مجسم
إذا ما اشتكى عضو تداعى جميعه ويسهر باقيه بضر ويحتم. 29

وينتهي الأستاذ مقدمة الجزء الرابع من كتاب "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" بقوله: "ومع ذلك نأمل أن نكون في الطريق الصحيح الذي رسمناه لأنفسنا أو رسمه الله لنا منذ وعينا دورنا في الحياة، وهو خدمة الجزائر والإسلام والعربية والمعرفة الإنسانية في أوسع معانيها". 30 أما في كتابه الأخير عن تاريخ الجزائر الثقافي المتكون من تسعة أجزاء، وفي صفحة الإهداء، فيذكر أنه يهدي هذا الكتاب إلى أطفال الجزائر الذين "سينشرون غدا كنوز الثقافة العربية الإسلامية لبلادهم ويشرونها بإنتاجهم". 31 وعندما تحدث عن مسألة كتابة التاريخ الوطني عبّر عن أمله في أن تظهر فئة من الباحثين تهتم بكتابة تاريخنا من أجل "الكشف عن الذات الجزائرية وتحديد أبعادها وإبراز مساهمتها في الحضارة الإنسانية عامة والحضارة العربية الإسلامية خاصة". ويتساءل عن ذلك بقوله: فمتى يتحقق هذا الأمل؟

مما سبق نجد أن كلمتي العروبة والإسلام متلازمتان: فالثقافة: عربية إسلامية، والحضارة: عربية إسلامية، والوطن: عربي إسلامي، والأمة: عربية إسلامية، والقضايا: عربية إسلامية، ونحن: العرب المسلمون، وحالنا: كعرب مسلمين، والتوحيد في ظل العروبة، وخدمة الجزائر والإسلام والعربية... الخ، كلها عبارات تتكرر لدى الأستاذ لتعني لديه أهم المقومات الشخصية للشعب الجزائري.

3- الاستشهاد بالآيات القرآنية

يستشهد الأستاذ سعد الله بالآيات القرآنية أحيانا في كتاباته، ليؤكد أمراً إسلاميا في قضية من القضايا التي يعالجها، كما هي العادة غالبا بطريق الاقتباس والإسناد. فيبدأ كتابه "شعوب وقوميات" بالآية القرآنية التالية: "وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا". -الحجرات: 13- ويعقب على الآية بما يلي: "هذه الآية الكريمة توحى بأن الله قد خلق الخلق على أنواع وعلى درجات، فمنهم المتحضر ومنهم البدوي، ومنهم التقى الصالح، ومنهم السيد صاحب السلطان والمسود فقيد الحيطان. والطريق إلى كل ذلك هو التنازع والتدافع وصراع الخير والشر". 32

وعندما يتحدث في المقدمة نفسها عن القوة التي هي وسيلة البقاء وتدافع الشعوب والقبائل، وعن العلم والسياسة وتقدم الحضارات، يستدل بآيتين قرآنتين هما: "وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ يَبْغِضُ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ". 33 وقوله تعالى: "وَلَوْلَا دِفَاعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضُهُمْ يَبْغِضُ لَهْلُمَتِ صَوَامِعُ وَبِيعَ وَصَلَوَاتُ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا". 34 وينتهي المقدمة هذه بآية قرآنية أيضا مثلما بدأها بآية قرآنية، وهي: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ". 35 وفي كتاب "هموم حضارية" يستشهد بآية قرآنية، موجهها كلامه للعراقيين الذين اعتدى عليهم الأمريكيون، وذلك في قوله تعالى: "سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرِّعْبَ، فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ". 36 فبعد أن اعتذر لهم عن تقاعس الاخوة عن نصرتهم يدعُوهم إلى الصمود، وأن الله قادر على نصرتهم.

وفي تحقيقه لكتاب "إتحاف القارئ بحياة الشيخ خليفة بن حسن الأقماري" تأليف الشيخ محمد الطاهر التليلي، المطبوع سنة 2007، أورد أبو القاسم آيتين تمثل فيهما الشيوخ المذكورين في قوله: لو يبدو أن الشيخين كانا يتمتعان بعلم

غزير، ولكنهما كانا متواضعين متمثلين بقوله تعالى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا" 37 وقوله. "وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" 38 {

أما في تحقيقه لكتاب "رسائل في التراث والثقافة" المطبوع في السنة المذكورة آنفاً، فبعد أن استهل الكتاب بعبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي خصص لها صفحة كاملة مثلما فعل في الكتاب السابق، فقد ختم المقدمة بعبارة "والله من وراء القصد".

فالأستاذ خريج المدرسة القرآنية طفلاً والزيتونة والآداب والعلوم الإسلامية شاباً، يوظف الآيات القرآنية في دراساته، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأثره بالحياة الروحية الإسلامية، وتمسكه بإحدى أهم مكونات الشخصية الجزائرية الأصيلة.

4- استخدام مصطلحات وتعابير إسلامية

يتخلل كتابات سعد الله عبارات ذات مدلول إسلامي بين الحين والآخر، مثل الاستهلال بعبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" التي تصدرت مختلف كتبه، سواء كان ذلك في مستهل المقدمة أو الإهداء أو قبل التعريف بصاحب الكتاب المحقق أو غير ذلك. وهذا يعني أن العبارة مستعملة لدى الأستاذ، يفتح بها أعماله، وهو هنا يتطلق من سنة نبوية شريفة وهو التبرك بالبسملة في بداية كل عمل يشره المسلم.

ومن العبارات الإسلامية الأخرى ترد عبارة "وفق الله الجميع" التي جاءت في نهاية مقاله حول الجائزة التي منحت له بقسنطينة، ومنها أيضاً عبارة "لا قدر الله" و"تلك سنة الله في خلقه" وعبارة "رحمه الله" عند ذكر بعض المتوفين مثل والده وابن باديس ومحمد علي دبور ورضا حوحو... 39

وهو في رسالته، التي يوجهها عبر الصحافة، إلى كاتب الدولة الأمريكي سنة 1991 يقول له: "ها أنتم تزورون الجزائر وهي تعيش محنة قاسية لا يعلم إلا الله عاقبتها" 40 ومن بين كتابات الأستاذ الإبداعية نجد قصائد شعرية تتخللها عبارات دينية إسلامية، من ذلك مثلاً:

والملايين مثلي هباء
تمضغ الضاد وتدعو الأولياء
وتنادي الله دمعاً وشهيقاً

وحسبنا الله وفي الأخرى الجزاء. 41

فمناداة الله ودعوة الأولياء وذكر الآخرة، حيث الجزاء أو العقاب تدل دلالة واضحة على بروز أدوات إسلامية معروفة. وفي القصيدة نفسها التي تحمل عنوان "البعث" ترد عناصر إسلامية أخرى أو مشابهة مثل:

بالسياط الدامية
بالنداءات التي ترجو الإله
قوت يوم وجزاء

"وأعدوا" إن يوم البعث جاء... 42

وفي قصيدة أخرى يرد ما يلي:
يا عبيد الأرض والله وحيد
يا عبيد الجحد العاري المديد.
ثم يستطرد:

منذ سويتنا مع الشوك حرير
وعبدنا الطين والله القدير...
وينتهي القصيدة بقوله:

ولماذا يخلق الله قلوباً لا ترقى؟ 43

إن عبارات: الله وحيد، والله قدير. وخلق الله، كلها من معتقد إسلامي. وعن القضاء والقدر يرد هذا المقطع حول رثاء جده (تونس 1953):

لولا قضاء الله فيك لكان لي
رأي يجادل في القضا فيصيب! 44

وحول القضاء والقدر أيضاً وأشياء أخرى (القاهرة 1960):

من طبعنا نحن الذين نشتهي
لأننا من طين
لأننا لا نملك الشعاع
نتوق للضياء... نعبده
لكننا لا ندركه
لأننا تراب

وهاهي دلالات إسلامية أخرى في إحدى قصائده الواردة في الديوان (الزمن الأخضر):

إن السعادة معني في نخائله
صوت السماء تمادي في مآذنه
والوحي رفاً رفيفاً في طوائله
قدس إلهك في محرابه أبداً
واركع ركوع الحيارى في غلاته
حيث الربيع صلي خاشعاً خجلاً
للكون، لله، مفراحاً بنائله.⁴⁶

إنها دلالات العبادة، فالوحي والتقديس والمحراب والركوع والسجود والخشوع، كلها مصطلحات دينية استغلها الشاعر ليعبر عما يجيش في نفسه بطريق صريح أو بطريق الرمز والإشارة.

وفي مجموعة الأستاذ القصصية التي أصدرها تحت عنوان: "سعة خضراء" ترد أقوال وأحاديث ينطق بها بعض شخوص الحكايات هي من صميم المجتمع الجزائري المسلم، تستعمل عبارات تدل على هذا الانتماء، منها مثلاً:

الحمد لله الذي رزقنا عالماً سيخرجنا من الظلمات إلى النور.

أو: ولكن أعود بالله أن أحتضن النرجس وبين جنبي قلب يضطرم كالبركان!

أو: نجحك الله من هذه الشجرة المرة يا عبد الحميد!

أو: اكتفى أحمد وصديقه عبد الحميد بتكرير حزب واحد من القرآن.

أو: وزعت كل المناشير والحمد لله لم يفتن البوليس لشيء.⁴⁷

أما الدعاء فيرصد في نهاية مقدمة الطبعة الأولى من كتاب "تاريخ الجزائر الثقافي" الجزء الأول على هذا الشكل: "وإني إذ أشكر الله على إعانته لي على إخراجي، أدعوه أن يجعله كتاباً نافعا، وأن يعينني على إكمال باقيه." وقد وردت هذه الفقرة في طبعة الجزائر لسنة 1985 وطبعة 1998 ببيروت. والدعاء نوع من أنواع الذكر وهو التوجه إلى الله سبحانه بما تشعر به النفس من الافتقار والعجز بدونه، وهو تقرب من الله، وقد ورد في القرآن الكريم: "وقال ربكم ادعوني استجب لكم".⁴⁸

لقد كان سعد الله في كتاباته مؤمناً أشد الإيمان بعرويته وإسلامه، متشبهاً بوطنه المسلم؛ إذ لم يفصل المواطنة عن الإسلام، بل جعلهما متلازميتين، فقد رضع هذا في بيته الصغير ببلدة قمار الصحراوية الهادئة. يقول عن نفسه وعن بيته: "وقد كانت البيئة التي خرجت منها بيئة عربية إسلامية محافظة جداً، وهي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة.."⁴⁹ وسار هذا الاتجاه مصاحباً له طيلة سني حياته الدراسية، فقد حفظ القرآن الكريم في الجامع، وبعد أن اشتد عوده رحل إلى تونس فحصل على شهادة التحصيل والأهلية من الزيتونة، وبذلك حصّن نفسه علمياً، وفي سنة 1954/1955 مارس التعليم في مدارس جمعية العلماء بالعاصمة، وكان يطالع صحيفة البصائر التي اشترك له فيها والده منذ سنة 1948.⁵⁰ وتوجه إلى القاهرة التي تخرج من جامعتها سنة 1959 متحصلاً على الليسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية.⁵¹

هكذا إذن كانت سني حياة الأستاذ الأولى التي يتكون فيها الفرد عقلاً ووجدانياً قريبة الصلة بميدان العروبة والإسلام، فكانت النهضة التي تقودها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكانت الثورة المسلحة الجزائرية على أشدها 1954-1962، والتي كان من أهدافها طرد المستعمر ورد الاعتبار للمقومات الشخصية للجزائر العربية الإسلامية التي تختلف تمام الاختلاف عن مقومات الفرنسيين. وكانت مصر الثورة -آنذاك- تعيش مرحلة التحرير في عهد جمال عبد الناصر.

لكل هذا كان البعد الإسلامي بارزاً لدى أستاذنا في كتاباته الأدبية والتاريخية على السواء، ليس كبعد متطرف متعصب، ولكنه بُعد يغني الوسطية والاعتدال دون تفريط أو إفراط.

لقد تشبث الجزائريون بهذه الرابطة الجديدة التي جاء بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وأصبح المغرب مكماً للمشرق وأصبحت لغة القرآن هي وسيلة التعبير والثقافة والعلم، ودافع سكان المغرب كله عن الإسلام والعربية في كل مجال.

1. عبد الكريم بوصفصاف، المسيرة العلمية والسيرة الذاتية للدكتور أبي القاسم سعد الله، منشورات غير الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة متنوري، قسنطينة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر. ذو القعدة 1424هـ/جانفي 2004م.
2. أبو القاسم سعد الله، هموم حضارية، دار الأمة، الجزائر 1993، ص: 60.
3. أ. سعد الله، الزمن الأخضر (ديوان سعد الله)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 213.
4. أ. سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الرابع، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996، ص: 147-148.
5. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء العاشر (10)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص: 603.
6. آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1954-1964)، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1997، ص: 8.
7. أ. سعد الله، هموم حضارية، ص: 110.
8. نفسه، ص: 77.
9. نفسه، ص: 145.
10. نفسه، ص: 170.
11. أ. سعد الله، أفكار جامعة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص: 160.
12. افتتاح رئيس الجمهورية جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة في 14-10-1984، تحت إدارة الدكتور عمار طالبي. (المصدر: د. حميدة عمرواي نائب مدير الجامعة نفسها في مقابلة معه بتاريخ 24-12-2003).
13. نفسه، ص: 20-21.
14. نفسه، ص: 17-18.
15. نفسه، ص: 18.
16. صالح عوفي، الشعر الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص: 123-124.
17. أ. سعد الله، هموم حضارية، ص: 15.
18. نفسه، ص: 11.
19. نفسه، ص: 104.
20. نفسه، ص: 170.
21. نفسه، ص: 121.
22. نفسه، الغلاف الخارجي الأخير.
23. نفسه، ص: 35.
24. نفسه، ص: 35.

25. أ. سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، الدار التونسية، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 119.
26. أ. سعد الله، الزمن الأخضر، ص: 234.
27. نفسه، ص: 271.
28. أ. سعد الله، أفكار جامعة، ص: 10-11.
29. عبد الرحمن بن العقون، مذكرات، منشورات دحلب، الجزائر 2000، ص: 153.
30. أ. سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ص: 6.
31. أ. سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص: 5.
32. أ. سعد الله، شعوب وفهميات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985، ص: 7.
33. سورة البقرة، الآية: 251.
34. سورة الحج، الآية: 40.
35. سورة الحجرات، الآية: 13.
36. أ. سعد الله، هموم حضارية، ص: 78. سورة الأنفال، الآية 12.
37. سورة طه، الآية: 114.
38. سورة الإسراء، الآية: 85.
39. نفسه، ص: 15-33-41-51.
40. نفسه، ص: 109.
41. أ. سعد الله، نثر وحب، دار الآداب، بيروت 1977، ص: 25.
42. نفسه، ص: 28.
43. نفسه، ص: 72.
44. أ. سعد الله، الزمن الأخضر، ص: 45.
45. نفسه، ص: 359-360.
46. نفسه، ص: 82.
47. أ. سعد الله، سبعة حضراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص: 37-50-56-75.
48. سورة غافر، الآية: 60.
49. أ. سعد الله، أفكار جامعة، ص: 182.
50. أ. سعد الله، منطلقات فكرية، الدار العربية للكتاب، ط: 2، ليبيا، تونس، 1982، ص: 45.
51. نفسه، أفكار جامعة، ص: 177.